الطباعة والصحافة

يقاس ارتقاء الامم ونسبتها بعضها الى بعض في سلم العمران الحاضر بامور شتى بعضها من مقوّمات هذا العمران وبعضها من لوازمه التي لا يستغني عنها كاستعمال الحديد والبخار والكهربائية وكثرة المعامل والمتاجر والمدارس . ومن ذلك المطابع والصحائف او الطباعة والصحافة فانهما من اول الادلة على درجة الارتقاء التي بلغتها البلدان في سلم العمران لان ارتقاءهما كان علة للتقدّم في العلوم والفنون الى حدّ لا مثيل لهُ في تاريخ الامم الغابرة ولا نظير لهُ في فرع آخر من اعمال الانسان . وهو معلول لهذا التقدّم كما انهُ علة لهُ

منذ مئة سنة كانت الصحافة في اوربا واسطة للتسلية كما كانت عندنا منذ عشر سنوات او كما لا تزال الآن على الغالب ولم تكن حرفة قائمة بنفسها بل كان المرء يتعاطاها مع غيرها . اما الآن فقد اضحت صحف الاخبار تاريخاً للعالم تكتب فيها حوادثهُ يوماً فيوماً وصارت من اكبر الوسائل لتنوير العامة وتهذيبهم وميداناً يتبارى فيهِ الكتبة البلغاء والكاتبو العلماء

وقد صدرت الصحيفة الاولى من صحف الاخبار الاوربية في المانيا منذ اربعة قرون وكانت في اول صدورها اعلانات تنشر في الاماكن العمومية كابواب الكنائس والمحافل . واقتدت حكومة البندقية بالمانيا سنة ١٥٦٦ فكانت تعلق الاخبار في بعض الاماكن وتتقاضى رسماً على قراءتها وكان الرسم قطعةً من النقود تسمى غازتة فاطلق هذا الاسم على الصحيفة نفسها وهو اسم صحف الاخبار حتى الآن في اكثر اللغات الاوربية

وجرت مدن اوربا هذا المجرى فصارت تنشر اخبارها في اوراق تعلقها في الاماكن العمومية . ثم لما اتقنت الطباعة وسهل طبع نسخ كثيرة في وقت قصير صارت هذه المنشورات تطبع طبعاً . وحينئذٍ قام البعض وجعلوا يجمعون الاخبار و يطبعونها و يرسلون نسخاً مما يطبعونهُ الى اصدقائهم بدل تعليقها في الاماكن العمومية فاقبل الناس عليها اقبالاً عظيماً

وكانت الطباعة تسير في سلم الاتقان سيرها بطيئاً لما لقيتهُ من مقاومة الذين حسبوها واسطة لامتداد الفساد ونشر الشرور واماتة النساخ جوعاً لكن المقاومة لا تمنع انتشار شيء تدعو الحاجة الى انتشاره فانتشرت الطباعة في المانيا وفرنسا وانكلترا وايطاليا وذلك في اواسط القرن السادس عشر وكانت تجد اعداءها في المرصاد حيثما انتشرت فلم يقوَ الصناع على اتقانها كما اتقنوا غيرها من المخترعات في ذلك الوقت وبقيت آلة الطباعة على شكل واحد حتى اواسط القرن

السابع عشر اي بقيت آلةً بسيطة توضع فيها الحروف وتحبَّر باليد و يوضع الورق عليها و يضغط عليه ضغطاً كما ترى في مطبعة كولمبيا المرسومة في الشكل الاول وكان استباطها سنة ١٨٠٧ وهي اول المخترعات الاميركية في فن الطباعة . ولم تثبت على هذه الحال لعجزت عن الوفاء بحاجة الناس في هذه الايام

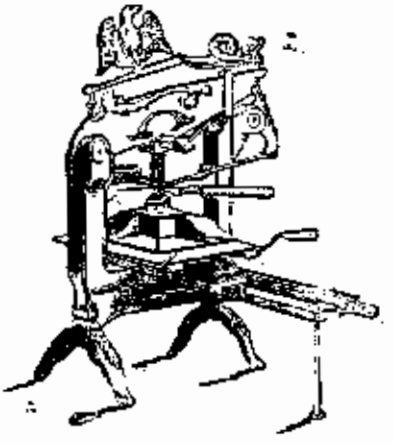

ولكن الاختراع ابن الحاجة فلما ذاعت العلوم وكثر طلب الناس للكتب والصحف وجد المخترعون الى تكثيرها سبيلاً بالقائهم آلة الطباعة فبعد ان كانت تطبع مئة نسخة صغيرة في الساعة صارت تطبع الوفاً من النسخ طبعاً متقناً جداً ثم زادت سرعتها كثيراً حينما استُخدم البخار لادارتها ذلك الجبَّار الذي دانت لهُ صعاب الامور وذلت عندهُ قوى الطبيعة

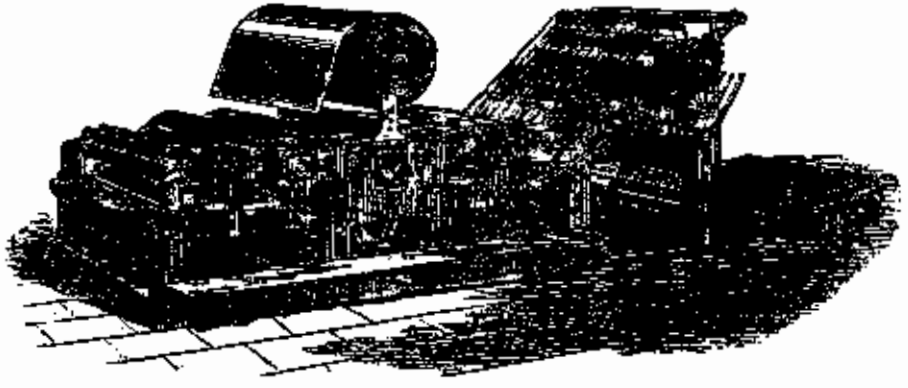

واول ما استخدم البخار في الطباعة كان في طبع جريدة التيمس سنة ١٨١٤ ومن ثمَّ وجَّه الناس عنايتهم الى اصلاح آلات الطباعة فوصلوا الى حدٍّ لا يصدقهُ شرقي لانهُ لم يرَ مثلهُ في

السرعة ولا رأى شيئاً يدانيها من مطابع الشائعة في القطر المصري والقطر الشامي تطبع الآلة منها في الساعة الف نسخة و الفين او ثلاثة آلاف او اربعة على الاكثر لكن الاوربيين والاميركيين صنعوا آلات يطبع بها ستة وتسعون الف نسخة في الساعة من جريدة فيها ثماني صفحات . او يطبع بها ثمانية وار بعون الف نسخة من جريدة فيها اربع وعشرون صفحة تطبعها بثلاثة الوان من الحبر وتخرج كل نسخة منها مطوية ومطوفة ومنشرة . وهي اشبه شيء بجبار عظيم مركب من اعضاء متعددة تتحرك وتدور بسرعة تفوق الوصف واحكام يدهش العقول كأن لها عقلاً يديرها بل لو كان لها عقل ما كانت اعمالها اكثر اتقاناً منها الآن

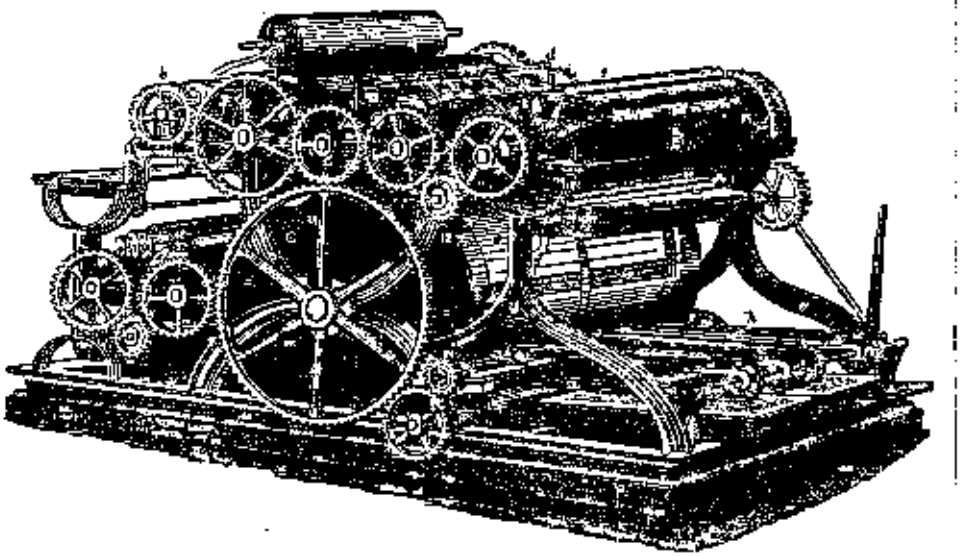

ويوضع الورق في هذه الآلات لفات اسطوانية كبيرة كما ترى في الشكل الثاني والثالث في كل لفة ورقة طولها لو بسطت ميلان الى اربعة اميال وكلما نفد الورق من لفة وضعت مكانها لفة أخرى وألصق طرف ورقها بطرف الورق من اللفة السابقة كأنها وشيعة الحائك التي يلف عليها خيوط اللحمة . وليس الغرابة في ذلك بل في ان هذا الورق يسير من نفسه تحت حروف الطباعة ويطبع بها بسرعة تفوق الوصف يطبع منه الف وستمئة نسخة في الدقيقة الواحدة او نحو ٢٧ نسخة كل ثانية من الزمان فتنهال نسخ الجريدة منها كأنها الماء من الشلال . وهذه غاية ما بلغته الطباعة من السرعة والاتقان

وقد ارتقت الصحافة بارتقاء الطباعة وصار لها شأن عظيم في كل البلدان الدستورية وكلمة نافذة في سياستها . وهذا القول يصدق بنوع خاص على البلاد الانكليزية والاميركية

لان للجرائد الكبيرة فيها مذاهب حرّة وهي تعتمد على ما اصبح حاكماً مطلقاً في بلاد الحرية والدستور وهو الرأي العام المستنير الذي يعرف ما ينفع البلاد وما يضرّها فاذا اتجهت الى جهة جرت الحكومة معه كأنها آلة في يده لقضاء مآربه

ولقد بعثت الى المقتطف برسالة عن الصحافة في البلاد الانكليزية وصفت فيها ما رأيته في تلك البلاد من المطابع والجرائد ولاسيما مطبعة الدايلي ميل أكثر الجرائد الانكليزية انتشاراً وادارتها من اشهر ادارات الجرائد وفيها احدث الآلات والمخترعات واكثرها اتقاناً واسرعها حركة . وطبع الدايلي مايل لا يبتدئ قبل الساعة العاشرة مساء فتطبع كلها ليلاً و يصدر منها في الصباح اكثر من مليون نسخة . ومعلوم ان آلة الطبع الواحدة لا تطبع هذا العدد العديد في بضع ساعات ولذلك ترتب الحروف بآلات خاصة بذلك و يصب عليها مادة تجمد حالاً وتصير كالقالب ثم يصب معدن الحروف على هذه المادة فتكون منه صور مثل الصور الاصلية المؤلفة من الحروف فتوضع كل صورة منها في مطبعة خاصة وتدار هذه المطابع معاً في وقت واحد حتى تستطيع كلها ان تطبع العدد المطلوب في بضع ساعات

وكان يباع من جريدة الدايلي مايل لما كنتُ في البلاد الانكليزية في الصيف الماضي ستمئة الف نسخة كل يوم ثم زاد عدد ما يباع منها زيادة بالغة بسبب مسألة دريفوس وحرب الترنسفال وهو الآن اكثر من مليون نسخة . ولا يبعد ان تكون زيادة المبيع بسبب هذه الحرب مئتين وار بعين الف نسخة في اليوم تباع بخمس مئة جنيه فاذا فرضنا ثمن ورقها وطبعها مئتي جنيه ونفقات مكاتبي الحرب وتلغرافاتها مئة جنيه في اليوم بقي لصاحب الجريدة مئتا جنيه كل يوم من زيادة المبيع وقت الحرب

وللجرائد الانكليزية مكاتبون منتشرون في اقطار المسكونة يذهبون الى ميادين القتال و يضربون في الصحارى والقفار لكي يجمعوا الاخبار والنوادر ويبعثوا بها اليها وكثيراً ما يكون لها اسلاك خاصة من التلغراف تأتيها بالاخبار من اقاصي البلدان وخطوط خاصة من التلفون تنقل اليها كلام مجالس النواب

ولمحرري الجرائد ومكاتبيها مقام رفيع في البلدان الاوربية لا يعلو عليه مقام فترى الامراء والكبراء ينتظمون في سلك المكاتبين ولا يحسبون في ذلك حطة لهم بل رفعة شأن كما حدث بالامس في مجيء السرجون سكوت الذي كان مستشاراً قضائياً في القطر مكاتباً لجريدة التيمس وقت الاحتفال بتمثال ده لسبس . ومقابلة الوزير في البلدان الاوربية قد تكون اسهل من مقابلة محرر الجريدة . ولكل جريدة من الجرائد الكبيرة لجنة من المحررين هذا للاخبار

الداخلية وذاك للخارجية وذلك للحربية و بعضهم لانتقاد التمثيل او لانتقاد الكتب . وفي ادارتها اداراتٌ شتى بعضها للاعلانات و بعضها للطبع و بعضها للتوزيع وعلمٌ جرًّا . وسرُّ نجاحها وعماد قوتها كثرة القراء وهي آتية من كثرة المتعلمين في مدينة لندن وحدها نحو ستة ملايين من النفوس وكل بالغ منهم يعرف القراءة والكتابة وكلهم يقرأون الجرائد رجالاً ونساء . وقد لا يقلُّ عددهم عن ثلاثة ملايين من النفوس . ففيها من قراء الجرائد اكثر مما في فارتي اميركا وافريقية واضعاف قرَّاء الجرائد باللغة العربية في كل اقطار المسكونة . وفي ذلك مدينة باريس ونيويورك وشيكاغو فلا عجب اذا صارت الجرائد من اقوى القوى السياسية والاجتماعية . وقد حدث ذلك كلهُ في الربع الاخير من القرن التاسع عشر نجيب صروف

التعليم المفيد

لما كنا نكتب المقالة التي موضوعها « الفاضل فاضل ولو عبدًا اسود » المدرجة في الجزء الماضي من المقتطف عن المستر بوكر وشنطون الذي ولد عبدًا وطلب العلم وهو لا يملك شروى نقير ثم انشأ مدرسة جامعة للعلوم والفنون يتعلم فيها الف طالب من اولاد الزنوج فيخرجون منها قادرين على الاكتساب ومجاراة البيض في وسط بلاد المجد والاجتهاد والعلم والعرفان في الولايات المتحدة الاميركية — لما كنا نخط سطور تلك المقالة كان بوكر وشنطون هذا يخطُّ مقالة اخرى في موضوعها تمامًا . فقد ورد علينا جزء يناير من مجلة السنتشري الاميركية الشهرية التي يكتب فيها مشاهير الكتاب الاميركيين فرأينا فيه مقالة مسهبة من قلم موضوعها « دلائل النجاح بين السود » فاستغربنا هذا الاتفاق وزدنا اكرامًا للرجل واعترافًا بفضله واحمدنا الخاطر الذي خطر لنا لما عنونَّا مقالتنا عنده « الفاضل فاضل ولو عبدًا اسود » . وها نحن نلخص بعض ما اورده في مقالته عسى ان يكون مثالاً للذين يتوخون منا السعي في نفع غيرهم ولا يعلمون السبيل المؤدّي الى ذلك . قال في التمهيد الذي مهدهُ لمقالته

« ان من المسائل الكبيرة عندنا مسألة تعليم ثمانية ملايين من السود سكان الولايات الجنوبية من اميركا وتهذيبهم وجعلهم مثل غيرهم من السكان . وقد اتسع نطاق هذه المسألة الآن لانهُ صار علينا ان نعلِّم نحو ثمانمئة الف نفس من السود سكان كوبا وبورتو ريكو فضلاً عما يجب من تعليم البيض سكان تينك الجزيرتين لان كثيرين منهم في حالة يرثى لها مثل